الفطام

أثناء حملي، كنت قد نويت أن أرضع «آدم» رضاعة طبيعية. قرأت عن الرضاعة الطبيعية وعن فوائدها له ولي. قرأت عن الصعوبات وكيفية التغلب عليها. لم أشترِ أي أدوات لرضاعة «آدم» لأنني لن أحتاج سوى ثديي. وُلِدِ «آدم»، وتم حجزه في حضَّانة الرعاية المركزة. لم أتمكن من إرضاعه أو احتضانه أو شم رأسه! بعد ليلتين معه في المستشفى، علمت أنني لن أعود به إلى المنزل. عدت إلى بيتنا وحدي برحم فارغ وحضن فارغ وقلب ثقيل.

أحضرت لي صديقتي أداة خاصة لشفط اللبن حتى لا يجف في ثديي، وطلبت مني طبيبة الرعاية أن أشفط لبنًا وأحضره لـ«آدم» في اليوم التالي. بكيت كما لم أبكِ في حياتي! لم تكن هذه صورة الرضاعة في مخيلتي! لم أكن مستعدة! ساعدتني عمتي كثيرًا في هذه الليلة العصيبة! هاتفتني وشدت من أزري! قالت لي أن أحضر فوطة مبللة بماء دافئ وأضعها فوق صدري. قالت لي أن أطفئ النور وأن أغمض عيني وأتخيل «آدم» في حضني. ساعدتني في تخيل رائحته وملمسه ونظرة عينيه وشكل يديه. أغمضت عيني وأمسكت بشفاط اللبن وجهزت له أول رضعة طبيعية! كانت عمتي توقظني في الليل كل ساعتين، وكأنني أقوم لأرضع طفلي، لأشفط المزيد من اللبن.

أخذت أمي اللبن إلى «آدم» في المستشفى وفرحت به الطبيبة. طلبوا المزيد في المساء. قضيت صباحي أشرب الماء وآكل اللوز وأشفط اللبن. أتت أمي مرة أخرى لتأخذ اللبن إلى رضيعي الذي لم أحتضنه بعد. في اليوم التالي، طلبت مني الطبيبة أن أأتي لأرضع «آدم» تحت ملاحظتهم. نزلت السلم متعثرة متألمة. ركبت سيارة أمي متألمة باكية. دخلت المستشفى بألم في فرجي وألم في شرجي وألم في صدري وقلبي. جلست حيث طلبوا مني وانتظرت.

دخلت عليَّ الممرضة تحمل حبيبي ملفوفًا في رداء أخضر فضفاض، نظرت له ومددت يدي لأحمله لأول مرة. انهمرت الدموع من عيني، كما تنهمر الآن وأنا أكتب هذه السطور، وشعرت باللبن يتدفق في صدري. لم أدرِ إلا وأنا أخلع عني قميصي وأحتضن رضيعي وأضعه على صدري. دثرتني الممرضة بملاءة وأغلقت الباب وتركتنا معًا. رأيت جزءًا من كتفه العاري، فقبلته. تأملت وجهه الجميل ويده الصغيرة وحركة فمه وهو يرضع. انتهى من الرضاعة ونام. اقتربت من رأسه وتركت أنفي لتشمه وتستنشق رحيقه وامتلأ قلبي بالحب.

أخذوه مني ولكنهم طلبوا مني أن أترك لهم المزيد من اللبن وأن أعود لأرضعه في الصباح الباكر. شفطت لهم لبنًا غزيرًا وخرجت مع أمي وصديقتي. اختفى الألم. ليست هذه نفس الأم التي دخلت المستشفى منذ ساعات. لقد اختبرت لأول مرة خدر هرمونات السعادة بفعل الرضاعة. فهمت لماذا يوصف لبن الأم بأنه الحب السائل. عدت لـ«آدم» بالمزيد من الحب السائل حتى سمحوا لي في اليوم الخامس من ولادته بأخذه. في بيتنا، أغلقت علينا بابنا، وبدأت مرحلة جديدة في علاقتنا.

بعد عدة أيام، استيقظت من نومي في عمق الليل لأذهب إلى الحمام. وقتها كنت أقضي حاجتي واقفة في البانيو لأتجنب الألم. وقفت وانتهيت، وفجأة شعرت ببرودة في جسدي وبدأت أرتعش وأنتفض. لم أعد قادرة على الوقوف فجثوت على ركبتي. فتحت الماء الساخن علني أشعر بالدفء. شعرت وكأن روحي ستخرج. فكرت في رضيعي النائم. استسلمت لمصيري ثم توقفت الرعشة فجأة كما بدأت فجأة. خرجت من البانيو وجففت نفسي وارتديت ملابسي وعدت إلى سريري حيث ينام رضيعي.

في الصباح حكيت لعمتي ما حدث لي، فباركت لي وقالت إن اللبن قد نزل على صدري. تكرر الأمر أكثر من مرة خلال الشهر الأول من ولادة «آدم»، وفي كل مرة تقول لي عمتي إنه رزق «آدم». في الصباح، كان «آدم» يرضع كل ربع ساعة، وفي المساء، كان «آدم» يرضع كل ساعتين. كنت مجهدة ومرهقة ولكني كنت مستمتعة بالرضاعة. مرت الأشهر الأولى وتوطدت علاقتي بـ«آدم» وعلاقة «آدم» بالرضاعة. مع الوقت، أصبح حضني وثديي هما إجابة أي سؤال وحل أي مشكلة ومسكن أي ألم. حلت الرضاعة مشاكل النوم وصعوباته، وألم التسنين، والمغص، والملل، والخوف.

مرت السنوات، واقترب «آدم» من إتمام عامه الثاني. كنت مرهقة ومستنزفة. كنت مستعدة لفطامه لكنه لم يكن مستعدًّا. كان يرضع مرات عديدة في اليوم ومرات عديدة أثناء النوم. سألت عمتي عن الفطام، فقالت إنني من الممكن أن أدهن ثديي بمادة مرة المذاق أو بلون داكن، لينفر «آدم» من الرضاعة. الخيار الثاني هو أن أتركه بضعة أيام معها أو مع أمي حتى ينسى. لم أتخيل أن تكون هذه النهاية المأساوية هي النهاية المثلى لعلاقة الرضاعة الناجحة جدًّا الخاصة جدًّا الجميلة جدًّا بيننا.

لجأت إلى د. «سيرز»، واكتشفت أنني لست مطالبة بوضع نهاية للرضاعة الآن! اكتشفت أنه من الممكن والطبيعي أن أترك «آدم» لينفصل عن الرضاعة بميقاته الخاص. اكتشفت أن السن الطبيعي للطفل أن يفطم نفسه يبدأ من عام ونصف وقد يستمر حتى ستة أعوام. قرأت أن فطام الطفل قبل أن يستعد مضر له وقد يتسبب في نوبات من الغضب والإحباط والمشاعر السلبية. قررت أن أنتظر. كنت أستمتع أنا و«آدم» بالرضاعة ولم أمانع من إعطائه المزيد من الوقت. أسوأ ما في هذه المرحلة كان كلام الناس. واجهت ضغوطًا من الجميع لأفطم «آدم». الحمد لله على العند والصلابة! لم أرضخ!

مر عام آخر، وأصبح «آدم» يرضع عند استيقاظه وقبل نومه فقط – إلا إذا كان مريضًا أو متألمًا. في يوم من الأيام، قبل إتمامه عامه الثالث، قبل النوم، استدار «آدم» ونام! هكذا! في الصباح، استيقظ وقال إنه يريد أن يأكل. هكذا! في المساء، قبل النوم احتضنته وقلت له إننا سنقول الوداع «للبزوز». شعرت أنه متخوف من الحرمان من الحضن. أكدت له أن حضني سيظل متاحًا له في أي وقت، حتى بعد وداع «البزوز». نفخت له بالون وأعطيته الخيط،

ثم وقفنا في البلكونة، وأطلقنا سراح «البزوز». شاهدنا البالونة تطير وبكينا انتهاء المرحلة.

بعد الفطام، مر عليَّ أسبوع أسود من الألم النفسي والحزن والاكتئاب. بالإضافة إلى الشجن، كان هناك الألم الجسدي ونوبات الحرارة والانتفاخ. مر الأسبوع بسلام ومر الفطام بسلام. يحكى لي «آدم» كثيرًا عن مشاعره أثناء الرضاعة وعن مذاق اللبن ويشكرني على صبري وحبي. أحكي له عن الحنين والشوق للحب السائل، فيحتضنني. أشاهده يكبر أمامي في توازن تام بين الاستقلال والانفصال. ما بيننا اسمه ترابط!